

التأصيل الديمقراطي في مشروع عبد الله العروي Democratic roots in Abdullah Al-Arwi project

بلعكروم فتيحة*

المدرسة العليا للأساتذة آسيا جبار - قسنطينة 3

Belakroum_fatiha@hotmail.fr

تاريخ القبول: 2020/10/24

تاريخ الاستلام: 2019/12/20

ملخص:

تميز الأنظمة العربية بنقص في شرعيتها الدستورية فهي تنشأ إما إثر انقلاب عسكري أو نظامي ملكي أو حكم تسلطي يعتمد على الطبقة أو نظام قبلي عشائري، طالما أن السلطة السياسية غير مستمدة من الشعب عن طريق الانتخابات الحرة المباشرة دون تزيف أو تلاعب بنتائج الانتخابات ودون قهر أو تخويف للمرشحين من أجل ضمان نتيجة شبه اجتماعية على الرئيس والمرشح الواحد مدى الحياة.

وتبدو مسيرة "عبد الله العروي" الثقافية شديدة الانسجام مع هذه المرحلة التاريخية التي شهدتها العالم العربي وكذا الفكر العربي المعاصر "فالعروي" ليس كبقية الباحثين، إن وراء إنتاجاً فكرياً ضخماً، وتراكماً معرفياً مميزاً، وله معرفة عميقة بتاريخ المغرب وكذلك فاعليته التنويرية في الأوساط الثقافية العربية والأوروبية وحتى الأمريكية.

ولعل أسلوبه في طرح قضايا سجالية مثل: (الأيدولوجيا والتاريخ والرواية) قد ميّزه بين الباحثين العرب، خاصة في تناوله لقضية تبرير تأخر العرب التاريخي ورفضه للتقسيم بين الثقافي والسياسي وشدد على تكاملهما لبناء نهضة عربية جديدة.

فلا تكفي أن تكون السلطة في نظره بيد جماعة تريد الإصلاح وبناء مجتمع متقدم وراقي يكرّس للديمقراطية وحرية الرأي والمساواة، إذا كانت هذه الجماعة ذات ثقافة ضعيفة. لأن الدولة أداة فاعلة لتطوير المجتمع وليست مجرد آلة لاستغلاله وقهره.

الكلمات المفتاحية: عبد الله العروي، الديمقراطية، المغرب العربي، نظام الحكم (السلطة)، المثقف.

Abstract :

* د. بلعكروم فتيحة: Belakroum_fatiha@hotmail.fr

Arab regimes are characterized by a lack of constitutional legitimacy. They arise either as a result of a military coup, a monarchy, or an authoritarian rule based on the class or a tribal system, as long as the political power is not derived from the people through direct free elections without forgery or manipulation of the election results and without oppression or intimidate the candidates in order to ensure a semi-social result for the president and one candidate for life.

And Abdullah Al-Arwi's cultural march seems very consistent with this historical stage witnessed by the Arab world, as well as contemporary Arab thought , “Al-Arwi” is not like the rest of researchers , so, behind him a huge intellectual production, and a distinctive accumulation of knowledge, and he has a deep knowledge of the history of Morocco as well as his enlightenment effectiveness in the Arab cultural circles, European and even American.

Perhaps his method of presenting controversial issues such as: (ideology, history and the novel) distinguished him among Arab researchers, especially in his handling of the issue of justifying the Arabs' historical delay and his rejection of the division between the culture and the politics and he bases on their complementarity to build a new Arab renaissance.

It is not sufficient for the authority to be in the hands of a group that wants to reform and build an advanced and sophisticated society dedicated to democracy and freedom of opinion and equality, if this group has a weak culture. Because the state is an effective tool for the development of society, not just a machine for exploitation and oppression.

Key words: Abdullah Al-Arwi, Democracy, the Maghreb, the system of government (authority), the intellectual.

مقدمة

لقد بلغ المفكر المغربي باجتهاده قولاً فلسفياً ونقداً كذلك، يتناول الثالث الثقافي، السياسي، الاجتماعي والفلسفي. لكنه لا يخرج في بداية الأمر عما هو عربي بوصفه الناطق بتاريخه، وثقافته، وثقافة دينه، دون أن ننسى اللغة العربية وقوة دلالتها في البنيان الثقافي وتوجهه، لكن يبقى رهن القول المغربي رهين بعض القيود العامة التي تقلص من مساحة كينونته كفاعل في الساحة السياسية، كمنظر لمستقبله وكينونته المستقلة عن كل تبعية فكرية. ويعود الأمر أولاً إلى تكوينه الغربي الذي رسخ فيه تصوّراً معيناً للنقد، والثانية تتعلق بكونه ينتمي إلى ثقافة مازالت تخضع لأبشع الأوهام بالنسبة لقدسية الماضي والمعتقدات الآتية من الماضي، وكذلك يعود إلى الأنظمة السياسية في الوطن العربي التي لا توفر مناخاً صالحاً للبحث الحر، فلا تجاوب بين السياسة كممارسة والقول السياسي كفكر، كبنیان ثقافي من نوع خاص.

هذه الأرضية الثقافية والاجتماعية والسياسية والدينية هي التي جعلت من المقاربة النقدية ضرورة تخص القول المغربي في مختلف مجالاته، إنها الصورة الأكثر غنى مفهوماً.

ومن بين هؤلاء المجتهدين في رسم معالم القول المغربي بصورة عامة والسياسي بصورة خاصة، المفكر والمؤرخ "عبد الله العروي" الذي يبدو أكثر قرباً من الفلسفة. وبخاصة كتبه التي شكلت النواة المركزية لرؤيته المنهجية في معالجة التأخر التاريخي الذي يعانيه العالم العربي والإسلامي، منذ قرون على كافة الأصعدة.

تتمثل إشكالية هذه الدراسة حول الرؤية العروية لمشروع التأصيل الديمقراطي في العالم العربي والمغربي الإسلامي، فهل في دعوته هذه موقف عديم من التراث العربي الإسلامي في سبيل التأصيل لحدث غريبة؟ أم أنها دعوة إلى التفكير العقلاني حتى يكون منطلقاً نـ²و التنوير وجسراً نـ²و منطق

معرفي عربي جديد؟ ما هو منهج هذا القول السياسي المغربي العروي؟ ما آلياته ورهائنته؟ ما أهم المآخذ التي واجهها مشروع التأصيل الديمقراطي؟ ما مدى مصداقيتها؟

أولا. منهج القول السياسي العروي في التأصيل الديمقراطي:

إذا كان التفكير المغربي هو تدبير الفكر كضرورة معرفية مؤسسة على مقارنة نقدية، فإن "عبد الله العروي" وإن كان يعرف عنه مفكراً تاريخياً من خلال أعماله الكثيرة والمؤثرة ليس في الثقافة المغربية وحدها، وإنما في عموم الثقافة العربية، فكل مؤلفاته تتناول الكثير من المفاهيم المستخلصة من إشكاليات البيئة الثقافية والسياسية والاجتماعية العربية كمؤلفه حول "مفهوم الأيديولوجيا" و"مفهوم العقل"، "مفهوم الحرية"، "مفهوم التاريخ"، "مفهوم الدولة" بل حتى المؤلفات التي لا تشكل عنوان لمفهوم ما إذا تصفّتها تجدها تطرح إشكاليات مفاهيمية حول الديمقراطية والشورى، والعلم، والمنهج... الخ. فهي ذخيرة معرفية فاعلة في مضمار البحث في قضايا التاريخ والكتابة التاريخية، مبنية على مقارنة فلسفية نقدية لجملة من المفاهيم المعتمد عليها هنا وهناك، معتمداً على أرضية ماركسانية، يُلنا من خلالها إلى ما وراء الوراء. فهو القائل: "إن الماركسية بالنسبة للعرب هي أساساً مدرسة للفكر التاريخي، وهذا الأخير هو مقياس المعاصرة، بدونها تغرق كل فكرة في بئر الحاضر الدائم، أي ترجع إلى أرضية الفكر السلفي"¹.

تبدو الفلسفة في حال "عبد الله العروي" في خدمة التاريخ ولصالح فهم التاريخ، أي معرفتها تاريخياً ومن المنظور التاريخي بالذات. لأن الفكر التاريخي في فهم العروي لا يكتسب بدراسة التاريخ، بل يتطلب الاقتناع بنظرية في التاريخ، وهذا في اعتقاد "عبد الله العروي" لا يتوفر بكيفية شاملة ومقنعة إلا في الماركسية بتكوين نخبة مثقفة قادرة على تحديث الأمة سياسياً وثقافياً، واقتصادياً، فيتقوى الفكر العصري ويغذي نفسه بنفسه².

لهذا كانت مفاهيمه وإن بلغت مستوى عالياً من التجريد فإن نشأتها مستمدة من مساءلة الواقع الاجتماعي والواقع الثقافي، والمشهد السياسي، متقيداً بمنهجية صارمة مكنته من تفكيك الآليات المعرفية وتذليلها للوصول إلى أحكام شملت النخبة الثقافية والسياسية والإدارية. حيث يقول: "إنني أحكم على التراث انطلاقاً من مفاهيم غير نابعة من صلبه، وأدعي أن كل من يعيش في زماننا هذا، من يعتبر نفسه ابن هذا الزمان، لا يستطيع أن يفعل غير هذا... إنني أنطلق من مفهوم هو وليد تطور تاريخي وأطبقه على مادة أفترض أنها سائرة إلى التطابق معه، أفعل ذلك وأنا واع بالصعوبات المترتبة على هذا الإجراء، إلا أنني أدعي أن لا إجراء غيره للسبب المذكور".³

إن عبد الله العروي يعزز مفهوم اللحظة الفلسفية، حقيقة التفلسف وحفظها تاريخياً منذ البداية، بالتأكيد على المنهج والتعويل عليه، فهو الذي يعرف بالطريقة التي يتبعها في التأليف بين موادها، وماهية خياراته، وكيفية الحسم فيما بينها، لأنه ما يتم إنجازه في مجال مـلـد كما هو مرسوم له وفق خطة معينة، يكون الآخر متابعه أياً كان، معترفاً باستـقـاقه، لأنه يعترف به، طالما أكد التزامه بما تعهد به.⁴ وفي هذا السياق يقول "عبد الله العروي": "إن الثورة الفكرية تمس المنهج لا الأهداف التي ستبقى لمدة طويلة هي التنمية والديمقراطية، والاشتراكية".⁵

يفصح "عبد الله العروي" عن مسألة المنهج وضرورته بتمييزه عن الرأي، حيث المنهج يقبل بالعلم، فيقول: "إن مسألة المنهج ليست مسألة شكلية، مسألة مراجع وإحالات ونقاش آراء بكيفية منتظمة... الخ، بل هي قبل كل هذا مسألة قطيعة مع مضمون التراث، لا يستطيع أحد أن يدعي أنه يدرس التراث دراسة علمية، موضوعية، إذا بقي هو، أعني الدارس في مستوى ذلك التراث، ولا بد له قبل كل شيء أن يعي ضرورة القطيعة وأن يقدم عليها".⁶ لأن الانشغال بالتراث يتعارض مع المستجدات ومنطقها.

يصل "عبد الله العروي" المنهج بالعلم الحديث ومنطق الحداثة فيقول: "عندما أتكلم عن المنهج أعني في الواقع منطق الفكر الحديث بعد أن انفصل عن الفكر القديم"⁷. لأن من يروج للفكرة التي تنفي المشادة في المنهج باعتبار أنه مجرد اختلاف في الرأي، ولا يميز بينه وبين الرأي، في اعتقاد "عبد الله العروي" يروج للفكر التقليدي "فلا يوجد فكر حديث وبجانبه نقد، بل الفكر الحديث كله نقد، هذه هي الثورة الكوبرنيكية، فلا يكفي الكلام عنها، بل يجب الكلام بها"⁸.

يؤدّد "عبد الله العروي" منهجه المتعارض مع كل المناهج، لما أُنخ لفلسفته من خلال الفكر الحديث المؤسس على المقاربة النقدية من خلال تاريخانيته، لأنها الخيار الوحيد عنده بوصفها بوصلة العمل السياسي الهادف، ففي كل مؤلفاته يمارس "عبد الله العروي" حفرًا في مفهومه التاريخي حتى يتسنى للمنتهي هنا اكتساب الثقافة التي تمكنه من مضاهاة الآخر ومنافسته⁹.

إن التاريخ آنية تمثل مبدأ ومنهج في آن واحد للعبور إلى عالم الحداثة والمعاصرة، لكن دون أن يعني ذلك اتخاذ موقف عدمي سلبي من التاريخ الماضي، لكنه العقل الذي يفلسف مفاهيمه في ضوء المتّفق تاريخياً¹⁰. لأنها الترياق الوحيد حتى الآن، الذي عثر عليه "عبد الله العروي" كوسيلة للتخلص من كل أنواع الأيديولوجيات، والالتصاق بالواقع، لضمان النجاح "وإنقاص قيمتها هو في نظره شكل من أشكال العدوان الثقافي"¹¹. لأن طبيعة التفكير التاريخ أني، هو فكر تعميق المفهوم الفلسفي على مذهب التاريخ آنية، إنه أفق كوني ولا بديل عنه في اعتقاد "عبد الله العروي".

ثانيا. التأصيل الديمقراطي في المنظور العروي:

أ_ مفهوم الديمقراطية في قراءة عبد الله العروي:

1_ الديمقراطية والشورى في الإسلام:

ينطلق "عبد الله العروي" في تديد مفهوم الديمقراطية من مقدمة أساسية، أن الفكر التقليدي لا يتّدد بأحكامه العينية بقدر ما يعرف بمنهجه

المبني على حقيقة موجودة كاملة في مكان ما وفي زمان ما، لا تعرف بالتدرج بل دفعة واحدة، ومثل هكذا تفكير يجب مراجعته باستمرار، وكل فكر مبني على هذا المنهج سواء كان اجتماعي أو سياسي، فهو تدعيم لهذا الفكر التقليدي¹². وبما أن توجه "عبد الله العروي" معارض تماما لكل ما هو قديم ماض وتراث على الأقل على المستوى المنهجي، يقيم قطيعة بـ"فر واء" مفهوم الديمقراطية من خلال خطاب نقدي ما ورائي¹³ على حد تعبير المناطق، حيث يعقد مقارنة بين الديمقراطية والشورى في الإسلام ليبطل تلك العلاقة المشبوهة التي فسر بها الفكر التقليدي مفهوم الديمقراطية كمفهوم عصري بمفهوم الشورى في الإسلام كمفهوم قديم، واعتبر ذلك خلط في المفاهيم وعامل من عوامل تأخر الوعي السياسي في البلاد العربية والإسلامية، خاصة في الحقبة التي تلت التـرر من الحكم الاستعماري "منذ نشأت الحركة السلفية وهي تخلط بين الديمقراطية في مفهومها العصري والشورى في مفهومها القديم... لكن هذا لا يمنع ضرر هذا الخلط على المدى الطويل، إذ آخر الوعي السياسي في البلاد العربية والإسلامية"¹⁴.

إن الديمقراطية في نظر "عبد الله العروي" مبنية على منطق الإنسان ككائن اجتماعي يتواصل مع الآخرين ويناقش ما يهمه ويهم الجماعة من الشؤون السياسية والاجتماعية وإدارة الحكم، ولا يـكم هذا الحوار سوى بنود الميثاق الاجتماعي الضمني الذي يـقق الاستمرارية والسعادة.

ولهذا يشدد "عبد الله العروي" على ضرورة الفصل بين المفهومين في قوله: "وراء الديمقراطية الحديثة يوجد منطق ينطق به الإنسان المعاصر، أصالة لا ترديد لصدى ينزل عليه من بعيد، قد تردد جماعة مثل هذا الصدى وتعتبر نفسها حاملة لواء الكلمة العليا فتتنظم نفسها تنظيما حرا متساويا، وقد تؤسس ديمقراطية مثالية مطلقة، لكنها ليست الديمقراطية الحديثة"¹⁵.

إن الديمقراطية الحديثة إذن ليست متعالية المصدر، بل ماثلة للإنسان إنه أساسها ومنطقها، وليست كذلك حكم الشعب بالشعب، لأن هذا ضرب من التجريد، فإذا صدق على بعض الأنظمة فلن يصدق على جميعها "لأن معنى الديمقراطية الحديثة هو تأويل فقط للمعنى اليوناني القديم، أي أن ما يتولى المجتمع الحديث هو الوجهة الاقتصادية والاجتماعية والفكرية وهو الذي يلد مضمون النظام اليوناني بدون أن يكون في مقدور أي مؤرخ أن يجزم أن هذا المضمون هو بالفعل ما كان يفهمه معظم سكان أثينا"¹⁶.

"بينما الشورى كما فهمت وطبقت في التاريخ، تتطلب نظاماً آخرًا ومنطقاً آخرًا... إن مفهوم الشورى عند أصحاب الرأي في الإسلام لم يكن قط مرادفاً لمفهوم الديمقراطية"¹⁷ ويستشهد "عبد الله العروي" بموقف الناصري من حادثة استشارة "الحسن الأول" سلطان المغرب (1873-1894) في مسألة وسق الحبوب، حيث فتح باب الاستشارة على مصرعيه في عدة مناسبات ومع مختلف فئات التجار والفقهاء... الخ، أي جعلها عامة، وهذا ما يتعارض في اعتقاد "الناصري" وفؤاد الشورى في الإسلام، فيقول: "أهل الحل والعقد هم أهل العلم والدين والبصر بهذا الأمر الخاص"¹⁸.

إن المتأمل في المعنى الذي يعطيه "عبد الله العروي" للديمقراطية، يرتد في ماهيته إلى معطى واقعي حسي مستوحى من طبيعة العلاقات الاقتصادية التي تؤثر في تديد المفهوم الاجتماعي لهذه العلاقة، ومن ثمة يتدد مفهوم الفكرة السياسية التي يتعاطى بها مع المعطيات التي صنعها الإنسان وصمم منطقها، فهي ليست حكم تصدره نخبة علماء الدين والفقهاء وأهل البصر، وهو ما يبرر في نظر "عبد الله العروي" المآسي التي تعرض لها تاريخ الأمة الإسلامية بمثل هكذا استلواذ على قرارات مصيرية من قبل فقيه أو كلامي أو عالم دين، إذ يقول في هذا المضمار "إن هذا المعنى هو ما انتفى إليه الحكم في أغلبية البلاد الإسلامية، وهو المعنى نفسه لدعوة "محمد عبده" إلى ضرورة حكم المستبد العادل

في البلاد الشرقية بسبب انتشار الجهل فيها..."¹⁹. إن هذا القرار ليس قرارا واعيا ومسؤولا "فهذا كل ما وعاه الحكام من تعاليمه"²⁰. يقول "عبد الله العروي".

ثم يختم مقارنته بين الديمقراطية والشورى في الإسلام بفشل م²¹أولة لباس الديمقراطية لبوس الشورى في قوله: "وهكذا لم تنجح م²¹أولة تكييف الديمقراطية في البلاد الإسلامية بإظهارها في لبوس الشورى، فكانت النتيجة مخالفة للأهداف"²¹.

إن ت²²ليل "عبد الله العروي" للأيديولوجيا العربية والحفر في المفاهيم التي تؤلف نسيجها، يفضي إلى حقيقة مؤلمة، وهي أن الفكر العربي أسير قضايا لطالما اعتقد المثقف العربي أنها من صميم اهتماماته المعاصرة، وتمثل لحظته الحاضرة وأمله في المستقبل، كثنائية الديمقراطية والشورى في الإسلام، الأصالة والمعاصرة، إشكالية التقدم والتخلف، لكنها من منظور "عبد الله العروي" ليست إلا صورة من صور الخطاب الأيديولوجي العربي الذي ي²²أول أن يردم الفراغ المحفور بين صورة الذات وصورة الآخر. وهذا ما يبرر دعوة "عبد الله العروي" للتاريخانية مبدءا منهجًا.

2_ الديمقراطية والعلم:

يرفض "عبد الله العروي" ضرورة الوصل بين التقدم العلمي والديمقراطية، ويرى أنها الفكرة التي ألح عليها "كارل بوبر" في جميع كتاباته، فإذا وجدت هذه العلاقة فليس تلازم عضوي، وإنما توافق عرضي. حيث يقول بصريح العبارة: "فإذا استلزم العلم التجريبي حرية النقاش في دائرة العلماء، فهذا لا يعني أنه يستلزم بالضرورة الحرية السياسية على نطاق المجتمع كله... إن العلم في رأينا لا يستلزم الديمقراطية بقدر ما يستلزم حرية نقاش، أي التعددية والتسامح، وهاتان خصلتان قد توجد ضمن أنظمة تقليدية غير ديمقراطية، كما يشهد على ذلك تاريخ ألمانيا القيصيرية واليابان الإمبراطوري"²².

إن العلم إذن لا يقدم نظاماً للمجتمع وكيفية في التعاطي مع اللعبة السياسية، لأن مثل هذه الأفكار سليلة الفكر التقليدي القديم، الذي يتوارى خلف كل مظهر من مظاهر العصرية ويغذي الجامعات، والأساتذة، والمثقف، والمصلح السياسي، ليتناول الحداثة في عباءة الفكر القديم، إنها المفارقة التي يعيشها المثقف العربي "إن العلم الحديث سجين الجامعات العصرية لا يتعدى أروقته إلى الحياة اليومية... فمهما كان الإنتاج العصري يفوق الإنتاج التقليدي، فإنه ضعيف بالنسبة لإنتاج الماضي المتداول بين الناس" ²³.

ولهذه الأسباب يصير "عبد الله العروي" على أن التأصيل الديمقراطي يبدأ بضرورة النقد والبدلث عن منطق يناقض منطق الأيديولوجيات المسيطرة فيقول: "إذا أردنا أن نعطي فعالية لعملنا الجماعي وإبداعية حقيقية لممارستنا السياسية والثقافية، فلا بد من ثورة ثقافية تعم المجتمع بجميع فئاته، وتغلب المنهج الحديث في الصورة التي ظهر بها في بقعة معينة من العالم، لا في ثوب مستعار من الماضي" ²⁴.

لكنه لا يتردد في الدفع بالدولة إلى تشجيع العلم والعلماء والاستفادة منهم قدر الإمكان لكي تتقوى ويتقوى علمائها في آن واحد، ففوة العلم من قوة الدولة دون أن يفرض عليها نظاماً معيناً. "فإذا كانت الدولة قادرة على الاستفادة من العلم وهذه في نظري هي النقطة المهمة، التي تهيئ الظروف المواتية لتقدمه، فتقبل قدرًا من الآراء في نطاق مبدود... وإذا كان العلم يبدلث في حقائق مبدودة ونسبية، فلا يستبعد أن يقنع بدورية مبدودة مشروطة" ²⁵.

إن الديموقراطية إذن كنظام سياسي شامل، تتميز من المنظور العروي عن حرية النقاش في نطلق مبدود.

ب_ آلية التأصيل الديمقراطي في منظور عبد الله العروي:

إن تغير مواقف النخبة المثقفة بتغير الظروف، ودفاعها عن كل موروث وتقليد، جعل "عبد الله العروي" لا يراهن على هذه الفئة في عملية التبدلث

الاجتماعي، وبث قيم العقلانية، لاسيما عقلانية السلوك باعتباره أساسا لمجتمع حر متقدم، ولنظام ديمقراطي²⁶. فأعداد كبيرة من المثقفين أصب²⁷وا ينظرون إلى الحداثة وكأنها كارثة على الالتهام القومي، والتوازن النفسي، والتواصل التاريخي، ولا يرفعون راية الثقافة التي تفتح أبواب التقدم في إطار جديد وبوسائل ذهنية ومادية جديدة. وفي هذا السياق يقول "عبد الله العروي": "إن المثقفين، التقليدي والعصري، يتعارضان في الأهداف، لكنهما يشتركان في الموقف المعرفي إزاء المجتمع، كما أننا نلاحظ أن كل واحد منهما يتلقى بدون نقد ثقافة الآخر لا يعرف المثقف التقليدي حدود العلم الحديث، ولا يعرف المثقف الحديث حدود الآداب التقليدية"²⁷. بالإضافة أن في إقبال المثقف على التراث هو في الحقيقة دفاع عن مصلحة، سواء كانت ذاتية أو لمن يت²⁸لدث باسمهم، وهي صور سيئة للتعامل مع التاريخ في ت²⁹ليل "عبد الله العروي".

وبناءً عليه راهن "عبد الله العروي" على خيار الدولة كجهاز للت³⁰ديث يأسا من أن يكون المثقفون وسيلة ت³¹ديث، فبصرح العبارة يقول "عبد الله العروي": "لأنني يئست من أن يكون المثقفون وسيلة ت³²ديث... هذه الوضعية ليست خاصة بنا، بل عرفتها أوروبا أثناء فترتها الت³³ديثية، أغلبية المثقفين الأوروبيين كانوا ضد الحداثة..."²⁸.

إن رهان "عبد الله العروي" جاء إذن لسببين:

الأول: الضعف الذي شعر به ينخر الطبقة المثقفة سواء من حيث هشاشة الاعتقاد في قوة أفكارها، أو تجردها من أية سلطة أو قوة تسندها، فطغت المصالح على المبادئ. والسبب الثاني: سيطرت الدول على هذه الشعوب بأيديولوجيات الفكر التقليدي واستبدادها الذي يشمل كل فئات المجتمع دون استثناء، وخضوع هذه الأخيرة لحكامها لما تملكه من قوة التسلط في معارضة كل إصلاح، أي ترك ما كان على ما كان. وفي هذا المنحى يقول "عبد الله العروي":

"نعيش اليوم مفارقة عجيبة، إن الدولة كأداة توجيهية قمعية استغلالية موجودة وتتمتع بنفوذ كبير أو قليل في جميع البلاد العربية، تبرز سلطتها منذ عهد التنظيمات بالمنفعة، إنها تـفـز المجتمع لكي ينتج، يتقدم، ينمو، وأن منفعة الفرد قد اندرجت بفضل رعايتها تـفـت المنفعة العمومية"²⁹. إن العروي معني في المقام الأول ببيان مـدودية العقل في الفكر العربي الإسلامي الكلاسيكي والحديث وقد رأى أنها ارتبطت تاريخيا بالاستبداد والتسلط "فكلما اتسع مفهوم الدولة ضاق مجال الحرية، كانت الدولة مستبدة ومناهضة للفردية"³⁰. لكن الديمقراطية والحداثة مرتبطتين بالدولة والحرية بل بتلازمهما معا يقول "عبدالله العروي": "إن الحرية خارج الدولة طوبى خادعة، وإن الحرية بلا دولة ضعيفة متداعية"³¹.

ولهذا لا يتصور "عبد الله العروي" أن تقوم في المغرب دولة عصرية في شكل غير برلماني، أي بدون أن يكون رئيس الحكومة مسؤول مسؤولية تامة وكاملة أمام البرلمان، أي يستـقـيل تـدـيث بلد دون اعتماد النظام الديمقراطي "إن الإصلاح لا تقدم عليه إلا سلطة واثقة في شرعيتها، مطمئنة على مستقبلها..."³²، وحيث لا تتوفر شروط ذلك فمن الواجب فعل كل شيء بلا ممانعة لخلق هذه الشروط، لأنه بدون هذه الديمقراطية لا توجد مسؤولية سياسية.

إذن من أجل الانخراط في نادي الدول الديمقراطية راهن "عبد الله العروي" على أعلى هرم في الدولة لإنجاز هذه المهمة التاريخية، لكن هذا الرهان مرتبط بالتـولات الدولية المعقدة التي قد تكون عاملا مساعدا أم عنصرا كابـا لإطلاق دينامية في مسار ديمقراطية الدولة وتـدـيث المجتمع³³. إلا أن العالم العربي لم ينجح في إيجاد الكيفية التي يزاوج بها بين الديمقراطية والحفاظ على الدولة منذ القرن 19. لأن السلطة إذا كانت بيد جماعة ذات ثقافة ضعيفة، فمهما كانت تريد الإصلاح فمآلها الفشل كضرورة مـسومة مسبقا.

وعليه يكون التخلف الحقيقي في منظور "عبد الله العروي" هو الجمود والإعراض عن م²⁷ل تفكير في مسألة الإصلاح، كمشروع سياسي. بالتمسك بمفهوم الدولة كمكان سابق على الفكرة، ويعتبره ظل الأنظمة السياسية العربية القائمة. وفي هذا السياق يقول "عبد الله العروي": "إن الدولة سابقة على الفكرة، وأي تساؤل عنها يعني بالضرورة تساؤلًا عن الأصل والهدف"³⁴. وهذا ما يبرر رفض المؤرخ "عبد الله العروي" التقسيم بين الثقافي والسياسي وشدد على تكاملهما لبناء نهضة عربية جديدة. كما شدد على الب²⁸لث في مصادر شرعية الدولة من مختلف جوانب تلك الديمقراطية³⁵. لأن الدولة آلية م²⁹ورية في تأصيل الديمقراطية بالمعنى الإيجابي لها، وليست آلة استغلال وقهر، إن الدولة الديمقراطية في اعتقاد "عبد الله العروي" ليست هبة سماوية بل مكسب إرادي إنساني مبدؤه تاريخاني.

ثالثا. موقف عبد الله العروي بين الديمقراطية والثيوقراطية:

لقد بدا موقف "عبد الله العروي" متغيرًا في آخر حوار صحفي له مع جريدة "المساء" المغربية بدفاعه عن الثيوقراطية بعد فشل كل م³⁰اولات تبيئة النظام الديمقراطي في المنطقة العربية، على ضوء الت³¹ولات الكبيرة التي تعرفها المنطقة منذ الرجة التي أحدثها "الربيع العربي" وانعكاساتها على العالم. حيث يتساءل "عبد الله العروي" بقوله: "هل يمكن تصوّر زواج من هذا القبيل بين نقيضين، هي الديمقراطية والثيوقراطية؟..." ليجيب عن تساؤله بقوله: "عند الف³²ص نجدها كامنّة عند جل المنظرين السياسيين لم يلتفت إليها المحللون، لأنهم كانوا يظنون أنها لا تتلاءم مع مكتسبات العلم الحديث، لكن تبين اليوم أن التساكن ممكن، إشكالية جديدة متولدة عن فشل التجربة الشيوعية وعن العولمة الرأسمالية"³⁶.

إن السبب وراء التغير في موقف "عبد الله العروي" المدافع عن العقلانية والحدّاثة، هو أن الديمقراطية كما يعرفها: "حكم الشعب بالشعب وللشعب"

تتطلب وجود شروط قد تتوفر وقد لا تتوفر، قد توجد ثم تختفي، فتت³⁷ول إلى غوغاء هدامة للشعب، وتتولد في صلب الشعبوية إذا كانت الأغلبية متصفة بالتواكل ومتعودة على الاستجداء، لذلك وجد "عبد الله العروي" الحل السحري في هذه التوليفة بين الديمقراطية والثيوقراطية.

ضف إلى ذلك تشيؤ النخب الثقافية واستلابها الروح الإبداعية الثورية، ناهيك عن عودة المقدس إلى الساحة السياسية في المنطقة العربية³⁷.

فعملية الت³⁸ول الديمقراطي في الوطن العربي أصبح التراجع عنها ممكنا، لأسباب متعددة، أبرزها كذلك عقدة الأمن والحفاظ على الدولة، فتشكل في هذه المنطقة حالة استثناء، تمثلت في عدم استقرار الشرعية، كل هذه العوامل ساهمت في صياغة موقف "عبد الله العروي" رائد الحداثة والعقلانية. فهل يمثل هذا الموقف تنازلا من قبيل ما صرّح به في نفس الحوار، عندما اعترف قائلا: "الأمانة تدعوني في الغالب مساندة أصحاب القرار، في حين أعلم أن المنظر من أمثالي هو الرفض"³⁸؟ أم أنه يأس تسلل إلى منظر الحداثة؟.

يبدو أن "عبد الله العروي" مغتاط مما يجري على الساحة السياسية العربية، التي لا دور للعمل والعلم فيها، فكل شيء ي³⁹لدث في نظره بالحدس والخيال، بعيدا عن كل عقلانية في الفكر أو السلوك على حد تعبيره، واصفا السلطة العربية والإسلامية بأنها ان³⁹لرفت عن مسارها التاريخي منذ عهود طويلة، وأن الإسلام الذي يتبدى داخل تاريخه، يتجلى مختصرا في تاريخ ذاك، بوصفه تاريخ سلطة احتكرت التاريخ وأحالت الأفراد بوصفهم مراجع لها، إلى منابع يجري استثمارهم خارج إرادتهم³⁹.

غير أن العروي في النهاية يخرج عن الواقعي، وكذلك على التاريخ المدروس بواقعة متخيلة، لعدم وجود تاريخ يؤكد لها، واحلال تصور ورغبة مكان الواقع العربي بكل آثار الحقبة الاستعمارية وتوابعها⁴⁰، لاغيا خصوصية البيئة العربية الإسلامية، داعيا إلى الكونية بكل ما تت⁴⁰له من منظومة مفاهيمية فكرية،

واقتصادية مادية، منقلبا على التاريخ بالتاريخ، بدعوته إلى قطيعة حقيقية مع التراث بكل أشكاله ومستوياته، وكل مفاهيم السلطة التي تداولتها الدولة العربية الإسلامية، مراهنا على ذلك بالتاريخانية، التي شكلت في نظره المبدأ والمنهج في آن واحد، للتخلص من كل أشكال الأيدولوجيات، وخلق ذهنية عربية إسلامية خالية من كل فكر ميتافيزيقي طوبوي.

لكن اعتباراً للنقد البناء الموضوعي، يجدر بنا أن نقرأ هذه الدعوة من زاوية أخرى، أكثر إنصافاً لما قدمه "عبد الله العروي" في مشروعه الإصلاحية. إذ في دعوته للتاريخانية جرأة قوية في بث روح النزعة النقدية الواعية، التي تتجاوز كل طوبوية، وكل نزعة توفيقية. إنها لحظة انطلاق التفكير النقدي العميق، فالمتأمل في مبدأ "عبد الله العروي" لا يجد النقيض الحرفي للتراث بل هي قراءة من داخله لتدديد أوجه القوة فيه، وما يمكن العمل به أو تجاوزه، وكيفية الاستثمار فيه، حتى يتمكن المثقف الباحث من التجدد والتطور.

فلا أظن أن "عبد الله العروي" يسعى إلى حل مشاكل الأمة العربية والإسلامية على طريقة الإنسان الغربي، مثلما نعتة "الجابري"، لما قال: "إن هذا التاريخاني يدعونا إلى حل لمشاكلنا المطروحة هنا، في التجارب التي عرفها التاريخ هناك"⁴¹. وإنما يعارض الطريقة التي يتعاطى بها الباحث مع تراثه، ف"عبد الله العروي" "تراثي ضد التراث"⁴².

خاتمة:

مهما يكن ففي ملاحظات كثيرة يدعو "عبد الله العروي" إلى الروية قبل الإقدام على أي خطوة كانت، فهو صاحب المواقف الثابتة، وبصيرة الفيلسوف، وحكمة المؤرخ، نلمس ذلك في قوله: "إن الإصلاح في كل مجتمع وفي كل زمان، أمر خطير، لا تقدم عليه إلا سلطة واثقة من شرعيتها... وحتى في ظل هذه السلطة يبقى في الأمر قدر كبير من المخاطرة يدعو إلى التفكير والروية قبل الشروع"⁴³.

لكن يبقى "عبد الله العروي" صاحب مشروع فكري إصلاحي، يود التصدي لأخطر مشكلة يواجهها المجتمع العربي عامة والمغربي خاصة، وهو ضعف النسيج المجتمعي نتيجة الجمود والإعراض عن كل تفكير في مسألة الإصلاح كمشروع سياسي.

قائمة المصادر والمراجع المعتمد عليها:

1. عبد الله العروي: أزمة المثقفين العرب، ترجمة د. ذوقان قرقوط، المركز الثقافي العربي، ط1، 2005.
2. عبد الله العروي: العرب والفكر التاريخي، ط5، المركز الثقافي العربي، 2006.
3. عبد الله العروي: ثقافتنا في ضوء التاريخ، المركز الثقافي العربي، ط6، 2002.
4. عبد الله العروي: مفهوم الحرية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط4، 2008.
5. عبد الله العروي: مفهوم الدولة، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، ط2، 1983.
6. عبد الله العروي: مفهوم العقل، المركز الثقافي العربي، ط4، 2007.
7. إبراهيم مومود: النقد والرغبة في القول الفلسفي المعاصر، دار الحوار سوريا، ط1، 2007.

8. سعيد حداوي: عبد الله العروبي ومقدمات الإصلاح، الاتحاد الاشتراكي، مغرس 12:18، 2019/02/13.
9. علي أنزولا: الديمقراطية والثيوقراطية عند المفكر المغربي عبد الله العروبي، موقع قنطرة <https://ar.qantara.de> تاريخ المعاينة: 2019/02/15 الساعة 00:30.
10. كمال عبد اللطيف: الحداثة والتاريخ، حوار نقدي مع بعض أسئلة الفكر العربي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1999.
11. محمد عابد الجابري: الخطاب العربي المعاصر، دراسة تحليلية نقدية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط5، 1986.
12. مسعود ظاهر: مآورة فكر عبد الله العروبي، كتاب المسار المعكوس للأيديولوجيا المعاصرة، موقع الحياة، تاريخ المعاينة: 14/02/2019، على الساعة 00:01.
13. Barthes. R: Essais critique, éditions du seuil, 1964.

هوامش البحث:

- 1 عبد الله العروبي: العرب والفكر التاريخي، ط5، المركز الثقافي العربي، 2006، ص68.
- 2 المصدر نفسه، ص68.
- 3 عبد الله العروبي: مفهوم العقل، المركز الثقافي العربي، ط4، 2007، ص17.
- 4 إبراهيم مأمود: النقد والرغبة في القول الفلسفي المعاصر، دار الحوار سوريا، ط1، 2007، ص291.
- 5 عبد الله العروبي: العرب والفكر التاريخي، ص130.
- 6 عبد الله العروبي: مفهوم العقل، ص11.
- 7 المصدر نفسه، ص12.

- 8 المصدر نفسه ، ص12.
- 9 إبراهيم مود: النقد والرغبة في القول الفلسفي المعاصر، ص292.
- 10 المرجع نفسه، ص304.
- 11 عبد الله العروي: أزمة المثقفين العرب، ترجمة د. ذوقان قرقوط، المركز الثقافي العربي، ط1، 2005، ص112.
- 12 عبد الله العروي: العرب والفكر التاريخي، ص42.
- 13 Barthes. R: Essais critique, éditions du seuil, 1964, p255.
- 14 عبد الله العروي: العرب والفكر التاريخي، ص40.
- 15 المصدر نفسه ، الصف ٢٢٢ نفسها.
- 16 المصدر نفسه ، ص ص40-41.
- 17 المصدر نفسه.
- 18 المصدر نفسه.
- 19 المصدر نفسه.
- 20 المصدر نفسه.
- 21 المصدر نفسه ، ص41.
- 22 عبد الله العروي: ثقافتنا في ضوء التاريخ، المركز الثقافي العربي، ط6، 2002، ص127.
- 23 المصدر نفسه ، ص42.
- 24 المصدر نفسه، ص43.
- 25 المصدر نفسه، ص128.
- 26 سعيد حداوي: عبد الله العروي ومقدمات الإصلاح، الات ٢٢٢ الاد الاشتراكي، مغرس 12:18، 2019/02/13.
- 27 عبد الله العروي: ثقافتنا في ضوء التاريخ، ص175.
- 28 سعيد حداوي: عبد الله العروي ومقدمات الإصلاح، الات ٢٢٢ الاد الاشتراكي موقع مغرس.
- 29 عبد الله العروي: مفهوم الدولة، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، ط2، 1983، ص168.
- 30 عبد الله العروي: مفهوم الحرية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط4، 2008، ص22.
- 31 المصدر نفسه، ص176.
- 32 عبد الله العروي: ثقافتنا في ضوء التاريخ، ص229.

- 33 سعيد حداوي: عبد الله العروي ومقدمات الإصلاح، الاثنا عشر الاشتراكي موقع مغرس.
- 34 عبد الله العروي: مفهوم الدولة، ص16.
- 35 مسعود ظاهر: ماثورة فكر عبد الله العروي كتاب المسار المعكوس للأيديولوجيا المعاصرة، موقع الحياة، تاريخ المعاينة: 14/02/2019، على الساعة 00:01.
- 36 علي أنزولا: الديمقراطية والثيوقراطية عند المفكر المغربي عبد الله العروي، موقع قنطرة <https://ar.qantara.de> تاريخ المعاينة: 15/02/2019 الساعة 00:30.
- 37 المرجع نفسه .
- 38 المرجع نفسه.
- 39 إبراهيم ماثود: النقد والرغبة في القول الفلسفي المعاصر، ص493.
- 40 كمال عبد اللطيف: الحداثة والتاريخ، حوار نقدي مع بعض أسئلة الفكر العربي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1999، ص86.
- 41 محمد عابد الجابري: الخطاب العربي المعاصر، دراسة تحليلية نقدية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط5، 1986، ص55.
- 42 إبراهيم ماثود: النقد والرغبة في القول الفلسفي المعاصر، ص381.
- 43 عبد الله العروي: ثقافتنا في ضوء التاريخ، ص229.